في سبيل إصلاح الأزهر

الأستاذ محمد يوسف موسى

ليس كثيراً على (الرسالة) الغراء وصاحبها الجليل أن يُشغلا بالأزهر وإصلاحه ، وليس معنى إفراده بالكتابة ولفته لواجبه أنه دون الجامعة فهماً لتبعاته وقياماً بها . ولكن معنى هذا أن الأزهر لمصر وللعالم الإسلامي عامة ، كالقلب به صلاحه وقوامه ، وكالمنارة تهدي الضال وترشد السفر بما تبعث من ضوء وهدى . إنه الذي يقوم على ثقافة ناشئة الإسلام العالية من الصين في الشرق إلى المغرب الأقصى بأفريقية

لهذا كان حرياً بنا إتمام النظر والدرس ، والتعمق في التفكير والفحص ، لهذه الجامعة التي هي رابطة بلاد الإسلام ، لعلنا نقف على الداء ونصيب الدواء ، فينهض الأزهر بعد أن طال عليه الأمد وهو وسنان ، ويمضي لغايته قُدُماً بعد طول عثار ، ويعود كما كان مصدر العلم النافع والعرفان الذي به ملاك الدين والدنيا .

لا ريب في أن الأزهر تخلف عما يراد منه ، يعرف هذا من اتصل به تلميذاً أو مدرساً ، ويشكو منه أبناؤنا وبخاصة غير المصريين الذين تركوا بلادهم خاصاً ليعودوا إليها بطاناً مليئين بالعلوم المجدية ، فإذا قلوبهم واجفة خشية أن يرجعوا إلى أوطانهم كما جاءوا إلينا بعد أن أضاعوا زهرة العمر ! هذا حق ، ولكن ما علة هذا وما أسبابه ؟ وهل إذا تبيّنا العلة كان من السهل أن نطبّ لها ونقتلعها من جذورها ؟

أعتقد أنه من الجرأة والمجازفة أن يزعم أحد منا أنه وقف على الداء كله ، وعرف له العلاج الشامل الكامل . ومع هذا كان من الواجب أن يدلي كل من تهيأت له الأسباب برأيه ، على أن يكون لنا من مجموع هذه الآراء ما يعين على تقويم المعوج وتهيئ السبيل للخير المرجى

* * *

١ — أول ما يلفت النظر فيما نحن بصدده أن طائفة منا تعيش في هذه الأيام بعقلية رجال القرون الوسطى . المدرس لا يعنيه إلا أن يفهم الكتاب المقرر وأن يُفهمه لطلابه ؛ فإن يسر الله والطلاب له هذا ، حمد الله ورأى أنه قام بواجبه . ليكن هذا الكتاب مليئاً بالمسائل والمشاكل اللفظية ، ومحشواً بنير قليل من الأخطاء العلمية ، فذلك لا يغير من وضع المسألة لدى الطلاب وعامة المدرسين ، ولا يلفتهم إلى محاولة فهم العلم نفسه والوصول إلى الحق ، سواء أكان في هذا الكتاب أم في غيره !

٢ — ثم لا يكاد الكثير منا يحس أن للأزهر رسالة يجب أن يضطلع بها ، ودوراً عليه أن ينهض بأعبائه . ولو أننا نفقه رسالتنا ونؤمن بها لما كان في أمورنا هذا الوهن ، وفي سُبلنا هذا العوج ، ولكُنا أعرف بالإصلاح وأهدى لسبيله ، ولأصبنا من النجاح — على الأقل — ما أصاب رجال الجزويت المنبثين في شرق العالم وغربه

هؤلاء يفهمون رسالتهم التي وهبوها أموالهم وأنفسهم ، وهي غرس الدين المسيحي في قلوب من يلون أمر تربيتهم وتثقيفهم ، ونشر هذا الدين في جنبات الأرض جميعاً . لهذا يدرسون دينهم دراسة وافية ، كما يدرسون الدين الإسلامي كذلك ، لعلهم يجدون فيه ثغرة ينفذون منها للدعاية لدينهم . ومع هذه الدراسات الدينية العالية تراهم يشاركون مشاركة طيبة في العلوم الاجتماعية والعمرانية. وفي الفلسفة والآداب ، ويتوسلون بهذه العلوم كلها ليصلوا إلى ما جعلوه لأنفسهم غرضاً وغاية . وهم في أمورهم عامة مخلصون متقانون ، لا يتهيبون عملاً ، ولا ينكصون عن تضحية ، يأتمرون ويتباحثون ويكيفون أنفسهم ومناهجهم حسب ما توحي به الأيام والمناسبات

أما نحن معشر الأزهريين فقد جهلنا العالم فأنكرناه ونكرنا ، وتجهمنا للعناصر الأخرى التي تتألف منها الأمة فتجهمت لنا ، وصرنا نعيش على هامش الحياة لا نحس بالغير ولا يحس بنا . منا من يفهم الدين على أنه شعائر جافة جدبة لا وسائل للفلاح والخير ! ومن يحذق قواعد النحو وأصول البلاغة ، ثم يعسر عليه أن يقيم لسانه بين الناس بأسلوب فصيح نفاذ للقلوب ! ومن